ذكرياتُ العيدِ

من العيدِ تَعلَّمْنا أن الطفلَ الصغيرَ «شيءٌ مهمٌ» في البيتِ، أو أَنَّنا نحن بذوَاتِنَا «أشياءٌ مهمةٌ» ... لأننا أطفالٌ ...

تَبْتَدئُ تَهْنئاتُ العيدِ في مدنِ الريفِ بعدَ مَغْربِ الشمسِ من يومِ الوَقْفَةِ، وتكونُ مقصورةً في ذلك اليومِ على الجاراتِ القريباتِ من المنزل؛ لأن الغالبَ عَلَيْهُنَّ أن يذهبْنَ صباحَ العيدِ مُبْكراتٍ إلى المقابرِ لزيارةِ الأمواتِ وقراءةِ الفاتحةِ على أرواحهم.

وتدخلُ الجاراتُ واحدةً بعد الأخرى يُرَددْنَ صيغةً لا تتغيرُ، تنتهي بهذا الدعاءِ:

... يعودُ عليكِ كلَ سنةٍ بخيرٍ ... أنتِ وصغيرَيْك وصاحبِ بيتك والحاضرين والغائبين في حفظ الله.

وقُبَيلَ المغربِ، تكونُ عمليةُ التغييرِ وتوزيعُ الملابسِ الجديدةِ على صغارِ البيت قد ابتدأَتْ على يدِ الوالدةِ في نشاطٍ وسرعةٍ، ولكن — وهذا هو العجبُ — في غضبٍ وشدةٍ، وأحيانًا في سَخَطٍ وصِياحٍ: تعالى يا ولدُ ... اذهبْ يا مَسْخُوطٌ ... ادخلْ الحمَّامَ ... مع تسبيحةٍ أو اثنتين من قبيلِ: "إن شاء الله ما لبست" ... "إن شاء الله ما استحميت"!

ولقد تعوَّدْنا هذا المُوَشَّحَ كلَ عيدٍ على قَدْرِ ما تَعِيه الذاكرةُ في سنِّ الطفولةِ، وأكثرُ ما يكونُ ذلك حين تزدحمَ الجاراتُ.

وقدْ خَطَرَ لي يومًا أن هذا كثيرٌ على عمليةِ التغيير، فرفضتُ الكسوةَ الجديدةَ، وذهبتُ صباحَ العيدِ إلى منزلِ جَدَّتِي بثوبي القديمِ.

فلمّا دخلتُ منزلَ جَدَّتي «أم أمي» وهي ضَريرةٌ (فاقدةُ البَصَرِ): سَمِعَتْ الأطفالَ يُعْجَبون لأنني لم ألبسْ جديدًا في العيدِ، فَقَرّبَتني الجَدَّةُ العطوفُ إليها، وسَأَلَتْ في

شيءٍ من اللهفةِ: ما الخبرُ يا ولدي؟ لماذا لم تلبسْ ثَوْبك الجديدَ؟ ألم يحضروا لكم ثيابًا جديدةً؟!

– بلى ... إنّهم قد أَحضروها، ولكنني أَبَيْتُ أن آخذَها من يدِ بنتك ... لأنها تَشْتِمُنَا وتُزَعّقُ فينا ...

فابتسمتْ وهي تعرفُ بنتَها حقَّ المعرفةِ، وصَاحتْ: بنتي؟! وكيف كانت القصةُ؟ فأَعَدْتُ عليها القصةَ مرددًا كلماتِ السَّخَطِ التي أَغْضَبَتني، فَسَأَلَتْ: أكانَ أحدٌ من الجيرانِ عندكم في تلك الساعة؟

فحسبت أنها تطلبُ شُهُودًا على الوَاقعةِ، وقلتُ لها: كثيراتٌ ... فُلانةٌ ... وفُلانةٌ و...

فلم تُمْهِلْني أن أُتِمَّ أسماءَ جاراتيَ اللاتي تعرفَهُنَّ، وجعلتْ تُرَبِّتْ على كتفي، وتقول: «وأنت العاقلُ يا عباس تقول هذا؟! ... إن أمَّك لا تَبْغُضَك ولا تدعو عليك، ولكنها تُصْرِفُ النظرةَ ...»

وفهمتُ معنى «تُصرفُ النظرةَ» بعد شرحٍ قليلٍ، وخُلاصُتها: أن رؤيةَ الأمِّ في مساء العيد بين أطفالها الفرحين المُتَهَللين بالعيدِ تفتحُ أَعْينَ الحاسداتِ اللاتي حُرِمن الأطفالَ، ولا يَحتفِلْنَ «بتغييراتِ» العيدِ هذا الاحتفالَ، فإذا شَهِدْنَ أَمَاراتِ السَّخَطِ بدلًا من الفرحِ والرضا بَطُلَ الحسدُ، وسَلِمَ الصغارُ وأمهاتُهم من عيونِ الحاسداتِ.

•••

لأولِ مرةٍ أشعرُ بأن الطفلَ في البيتِ «قُنّيةً نفيسةً» يُحسَدُ عليها الأمهاتُ والآباءُ، وما كنتُ أفهمُ هذا قبلَ ذلك.

معاني الكلمات: مسخوط = مغضوب عليه. إن شاء الله ما لبست = على راحتك وبكيفك.

المصدر: (من كتاب السيرة الذاتية للأديب: عباس العقاد ، بعنوان "أنا")